

مشروع احتلال

موريتانيا

ملخص :

إن عملية احتلال البلاد الموريتانية من طرف القوات الفرنسية المتمركزة في مستعمرة السنغال المجاورة كانت ترمي من ورائها فرنسا ربط المستعمرات الفرنسية الجنوبية دول غرب إفريقيا (مالي والسنغال وساحل العاج غينيا) بمستعمراتها الشمالية (المغرب الجزائر تونس) وقد استولت الظاهرة الاستعمارية على اهتمام العديد من المؤرخين الموريتانيين إلا أنها بقيت تعاني من نقص في الواسعة رغم ما لهذه الظاهرة من نور فعال وحاسم على مجتمع افترق السلطة المركزية منذ أفول الدولة الوابطية

د. آدب ولد سيد محمد

a1adouba@yahoo.com

قسم التاريخ والحضارة

جامعة العيون

الإسلامية

موريتانيا

أ - كبولاني والمشروع الاستعماري:

- التعريف بكبولاني:

ولد كزافيه كبولاني مهندس المشروع الاستعماري في موريتانيا في فاتح فبراير 1866م بكورسيكا (جزيرة في البحر الأبيض المتوسط تابعة لفرنسا) و ذلك قبل أن ينتقل مع أفراد أسرته للاستيطان بالجزائر، والتي زاول فيها تعليمه ممّا مكّنه من إتقان اللغة العربية والاطلاع على العلوم الإسلامية، وكان فضوليا لاستجلاء ماغضض من العلوم الشيء الذي جعله يعكف على دراسة الدين الإسلامي والتأثير الروحي لبعض المذاهب الدينية ، بل إنه أقدم على استشارة العرافين وقراء الكف¹ ، و قد بدأ حياته المهنية ككاتب مراسل بمقاطعة قسطينة بالجزائر قبل أن يعيّن بعد ذلك كاتبا لبلدية واد الشرق بداية من 15 ابريل 1885م، و ذلك قبل أن يتم إلحاقه بالحكومة العامة لمنطقة غرب إفريقيا بداية من 15 ديسمبر 1895م حيث عيّن إداريا مساعدا سنة 1896م. وقد استطاع كبولاني خلال فترة تربيته في المكاتب العربية بالجزائر إنجاز كتاب حول "الطرق الصوفية الإسلامية" وذلك بالتعاون مع صديقه أكتار ديون (Octar Debont) وقد مكنته هذه الدراسة من تعميق و إثراء معرفته بالإسلام وطرقه وبالتالي تبلور لديه واتضح أهم وأنجع الطرق التي يجب أن تتعامل بها الإدارة الاستعمارية الفرنسية مع هؤلاء المسلمين في مختلف مستعمراتها، فطالب بإنشاء مصلحة خاصة بشؤون المسلمين تكون مهمتها الأساسية مركزة المعلومات المتعلقة بالإسلام وإرشاد الحكومة العامة والمصالح المعنية وتوجيهها في كل ما يتعلق بالسياسة الفرنسية اتجاه الأراضي الإسلامية والمسلمين، وبخصوص التعليمات المتعلقة

بالتعامل مع الطرق الصوفية في البلاد الموريتانية والقائمين بشكل عام على التعليم (الزوايا) فقد اقترح كبولاني في العمل على احتواء هذه الفئة وكسبها إلى الجانب الفرنسي، وهو بالفعل ما قام به كبولاني حين بدأ تنفيذ مشروعه.

وكانت أول فرصة أتاحت لكبولاني لوضع آرائه ومقترحاته محل التجربة حين كلف من طرف والي السودان الجنرال ترينتيان (Trentinian) في نوفمبر 1898م بمهمة في منطقة السودان الغربي والساحل الجنوبي لموريتانيا ، وذلك لأجل الدخول في مفاوضات مع قبائل الحوض وأزواد الموجودة في هذه المنطقة من أجل إقناعها بقبول الحماية الفرنسية ، وهو ما حصل بالفعل حيث تمكن كبولاني من تحقيق ذلك حين قبلت مشطوف وأولاد علوش في الحوض الشرقي (التابع وقتها للسودان الفرنسي) بالدخول تحت الحماية الفرنسية إضافة إلى القبائل التي تقطن منطقة أزواد، و بعد عودة كبولاني من مهمته هذه أعد تقريرا مفصلا ضمنه الكثير من المعلومات المتعلقة بالمناطق التي تجول فيها وغط حياة سكانها ، كما أشار في هذا التقرير إلى الدور الهام الذي يلعبه المربط الكبير الشيخ ماء العينين الموجود في الساقية الحمراء² ، و إلى المكانة الإستراتيجية للساقية الحمراء التي يقيم بها هذا الشيخ، كما طالب كبولاني في تقريره هذا بتوحيد المناطق التي تقطنها القبائل البيضانية والطوارق وإخضاعها للسيطرة الفرنسية تحت اسم "موريتانيا الغربية" وقد تبنت وزارة المستعمرات الفرنسية هذا الاقتراح حيث أصدرت قرار في 27 ديسمبر 1899م ينظم المناطق الممتدة من الضفة اليمنى لنهر السنغال والأماكن الواقعة بين خاي وتيمبكتو إلى غاية الطرفاية (Cop Jubu) غربا

² - محمد عبد الرحمن ولد عمار وآخرون ، تاريخ موريتانيا (فصول ومعالجات نواكشوط، 1999م، ص 175.

¹ - سعد خليل ، تكوين موريتانيا الحديثة ، ماجستير ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1977م ، ص233.

وشمالا إلى غاية الحدود الجزائرية، وذلك تحت اسم "موريتانيا الغربية"⁽³⁾.

ب - معارضة المشروع:

إنّ قرار وزارة المستعمرات لم يكن كافيا لتنفيذ مشروع كبلاني دون أن يواجه معارضة شديدة سواء على المستوى الإداري لحكومة منطقة غرب إفريقيا بل و حتى على المستوى الوزاري في فرنسا إضافة طبعا إلى معارضة أصحاب المصالح التجارية في سان لويس، وقد اصطدم بمعارضة شديدة من طرف صنّاع القرار في باريس لأسباب استراتيجية، وتحت ضغوط خارجية، ذلك أن امتداده نحو الشرق والشمال سيدخل قبائل محاربة شديدة البأس⁴، وسيعمل على خلق كيان عصي على الفرنسيين فيما لو أرادوا استخدام القوة لبسط سيطرتهم عليه، ومن جانبها كانت اسبانيا قد خططت لبسط نفوذها على إقليم الصحراء ولم تكن فرنسا التي تتعرض لمنافسة من طرف بريطانيا قادرة ولا مستعدة لمواجهة المطامح الأسبانية، وهكذا شدّب المشروع ليلاءم المصالح والمواقف الفرنسية حيث اقتطعت أجزاء من شماله، وأخرى من شرقه لتكون فيما بعد بؤر توتر في شبه المنطقة⁵، غير أن العقبة الرئيسية التي حالت بين كبلاني وتنفيذ مشروعه في الوقت الذي اختاره، تمثلت في موقف وزارة الخارجية الفرنسية التي لم تعر اهتمامها لهذا المشروع لاعتبارات دبلوماسية، حيث لم تجد في ضم موريتانيا أو احتلالها ما يعادل غضب كل من بريطانيا وألمانيا واسبانيا التي كانت تطالب بحقوق في المغرب وفي مناطق غير محددة لم يكن يعرف ما إذا كانت تشتمل

على موريتانيا أو جزء منها⁶، فقد أوضح وزير الخارجية الفرنسي وقتها دلكاسيه (Delcasse) أن الظرفية المعقدة التي تمر بها المنطقة لا تسمح بتنفيذ هذا المشروع خاصة إذا وضعنا في عين الاعتبار احتواء هذا المشروع لمناطق توجد في الأراضي الخاضعة للسيطرة الاسبانية، هذا فضلا عن وجود اتفاقية ثنائية بين المغرب و إنجلترا موقعة منذ 13 مارس 1895م تتعلق بالسيادة الانجليزية على المراكز الموجودة بالطرفية كما تبين هذه الاتفاقية سعي إنجلترا إلى توطيد و توسيع نفوذها في المغرب و هو ما لا ترغب فيه فرنسا⁷، أمّا على مستوى الحكومة العامة لمنطقة غرب إفريقيا فقد عبّر الوالي العام أميل شوديه (Emil Chaudie) عن رفضه لهذا المشروع باعتباره تنظيما سابقا لأوانه و خطرا كبيرا على أمن منطقة حوض نهر السنغال، و هو نفس الرأي الذي تبناه الوالي العام بالي (Bally) الذي خلف شوديه حيث اعتبر أنّ أيّ عمل عسكري في بلاد البيضان لن تكون أية نتيجة إيجابية لصالح فرنسا، خاصة إذ انطلقنا من اعتبار أنّ منطقة موريتانيا منطقة فقيرة من الناحية الاقتصادية إضافة إلى صعوبة إخضاع القبائل البيضاء للسلطة الفرنسية مباشرة.⁽⁸⁾

أمّا أشد المعارضين لمشروع كبلاني هذا فقد كانوا من التجار أصحاب المصالح التجارية مع البيضان الذين يرون أن أي تغيير من الوضع القائم ستكون له انعكاسات سلبية على مصالحهم التجارية، إلّا أنّ ذلك لن يثني كبلاني عن الاستمرار في العمل على تنفيذ مشروعه حيث استطاع بعد لقائه لوزير الخارجية الفرنسي

⁵ - محمد المختار ولد سيد محمد ، المجتمع والسلطة في موريتانيا ، المطبعة الجامعية ، 2013م ، صص 13-14.

⁶ - الهام محمد علي ذهني ، جهاد الممالك الإسلامية ضد الاستعمار الفرنسي 1850-1914م ، دار المريخ ، الرياض 1988م ، ص195.

⁷ - محمد عبد الرحمن ولد عمار وآخرون ، مرجع سابق ، ص 178-179

⁸ - محمد الراطي ولد الصدفن وآخرون ، تاريخ موريتانيا (فصول و معالجات) ، نواكشوط، 1999م، ص206.

³ - محمد الراطي ولد صدفن ، السياسة الاستعمارية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ،

نواكشوط، 1995م، صص 54-55.

⁴ - يتعلق الأمر بقبائل أولاد ادليم وأرقيبات في الصحراء الغربية، ومشظوف البرابيش في الشرق .

- منطقة نفوذ الشيخ سيدي بابا والتي تشمل الترازو ولبراكنة وأجزاء من تكانت.

- منطقة نفوذ الشيخ ماء العينين وتمتد على المناطق الشمالية وتخوم المغرب.

- منطقة نفوذ الشيخ سعد بوه: على الرغم من محدودية نفوذه الروحي في بلاد البيضان، إلا أن أتباعه ينتشرون بكثرة في مناطق السود الجنوبية، وقد استطاع كبولاني الاستفادة من عناصر التناقض والصراع الموجودة في المجتمع البيضاني وخاصة في منطقة الترازو وذلك لمباشرة تنفيذ المشروع الرامي إلى جر مختلف العناصر المتصارعة ودفعها الدخول تحت الحماية الفرنسية، وكان أول إنجاز حققه كبولاني في هذا الإطار تمكنه من دفع الأمير أحمد سالم إلى توقيع اتفاقية 15 ديسمبر 1902م قبل بموجبها مبدأ الحماية الفرنسية على منطقة الترازو وإلغاء الأتاوات المدفوعة تقليدياً للأمير من طرف الشركات التجارية الفرنسية وذلك مقابل تعهد السلطات الفرنسية بالاعتراف به أميراً على منطقة الترازو وتقديم الدعم والمساعدة له، هذا فضلاً عن تمكن كبولاني بفضل حنكته ومعرفته العميقة بالمجتمع البيضاني الحصول على مباركة الزعامات الدينية في المنطقة (الشيخ سيدي بابا والشيخ سعد بوه) لهذه الاتفاقية التي تمثل البداية الفعلية للسيطرة الفرنسية على البلاد الموريتانية.

ج- السيطرة السلمية:

وهكذا شرع كبولاني بعد حصوله على موافقة الأمير أحمد سالم بتوقيع اتفاقية 15 ديسمبر 1902م في استقطاب الفئات المتضررة في منطقة الترازو حيث بدأ مع بداية سنة 1903م في استقبال أعيان المنطقة الراغبين في قبول مبدأ الحماية فضلاً عن

دلكاسيه إقناعه بقبول مبدأ المشروع على أساس إحداث بعض التغيرات على حدود المشروع المقترح من الناحية الشمالية حيث تتوقف عند (Baie du Levrier) بانتظار الوصول إلى اتفاقية مع السلطات الإسبانية، كما تمكن كبولاني خلال إقامته في فرنسا من إقناع رئيس المجلس الأعلى فالدك روسو (Waldek Rousseau) بمشروعه فقام هذا الأخير بإنشاء لجنة وزارة تضم إلى جانبي وزارة المستعمرات ووزارة الخارجية ووزارة الداخلية في 6 يوليو 1901م، حيث عهد إليها دراسة الوضعية العامة بكل من الجزائر وإفريقيا الغربية والنظر في إمكانية الربط بينهما وفي 3 مارس 1902م قدمت هذه اللجنة تقريرها الذي صادقت فيه على إخضاع المناطق الممتدة من قاو إلى المحيط الأطلسي باستثناء المناطق الخاضعة للسلطة الإسبانية و بعد موافقة اللجنة الوزارية تم تعيين كبولاني مفوضاً عاماً للحكومة الفرنسية مكلفاً بتنظيم بلاد البيضان وليتوجه بعد ذلك إلى مستعمرة السنغال لإعداد العدة لتنفيذ مشروعه⁽⁹⁾، وقد تزامنت بداية كبولاني في مهامه الجديدة مع اشتداد حدة الصراع في البلاد الموريتانية هذا الصراع الذي شمل كافة المجموعات والفئات والاتجاهات الطرقية في البلاد، فإلى جانب الحروب والصراعات القائمة بين مختلف القبائل والأفخاذ المحاربة، يمكننا أن نضيف زيادة الصراع بين الفئة المحاربة والفئة الزاوية¹⁰، نتيجة تضاعف عمليات النهب والسلب التي تعرض لها القبائل الزاوية بفعل انعدام الأمن الناتج عن الصراعات القائمة بين القبائل المحاربة وعدم وجود أمير قوي بإمكانه فرض سلطته وتوفير الأمن لرعاياه، هذا فضلاً عن انقسام البلاد من حيث النفوذ الروحي للمشايخ الصوفية:

⁹ - محمد الراطي ولد صدفن، السياسة الاستعمارية، مرجع سابق، ص 56.

¹⁰ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الجمهورية الإسلامية الموريتانية دراسة مسحية شاملة، القاهرة 1978م، ص 43.

القبائل الزاوية التي وجدت في وضع الحماية الجديد فرصة لخلاصها من المعاناة الشديدة التي كانت تعانيها في الأنفس والممتلكات، هذا فضلا عن تمكن كبولاني من الحصول على قبول أولاد دامن (أنصار سيد ولد محمد فال منافس الأمير أحمد سالم) الدخول تحت الحماية الفرنسية، ولم يكن كبولاني يجهل أنّ الظروف الأمنية المتردية في منطقة الترازو كانت السبب الرئيسي في تمكنه من إخضاعها بهذه السهولة، لذلك قام فوراً بإنشاء مجموعة من المراكز الأمنية والتموينية حيث أمر النقيب دلابلان (Delaplane) بالاستقرار بالقرب من سهوت الماء في الوقت الذي قام فيه كبولاني رفقة كل من الضابط فيلي (Feuillé) وأمين الشؤون الأهلية مشيل أنجاي (Michel Angeli) والمترجم ولد المقداد، بإنشاء مركز أمني في سهوت الماء أشرف فيه كبولاني على استقبال العديد من أعيان المنطقة الراغبين في قبول مبدأ الحماية الفرنسية، وذلك قبل أن يتوجه كبولاني إلى أخروفة و ينشأ فيها مركزاً أمنياً (و هو المركز الذي سيقوم فيه سيد ولد محمد فال بتوقيع اتفاقية 5 فبراير 1903م، التي قبل بموجبها الحماية الفرنسية)، و بعد ذلك كلف كبولاني أفرير جان (Frère Jean) بإنشاء مركز نواكشوط ، ولم يكتف كبولاني بالتركيز فقط على استقطاب مختلف الأطراف المتصارعة في الفئة المحاربة بل عرف كيف يكسب من وراء علاقاته الطيبة مع أقطاب المشايخ الدينيين في المنطقة الكثير، حيث استطاع أن يحصل من الشيخ سيديا بابا على فتوى شرعية لم يختصر فيها هذا الزعيم الروحي على إباحة قبول مبدأ الحماية في المنطقة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث طالب بشكر الدولة الفرنسية على فعلتها هذه: «أما بعد فإن هذه

الإفريقية الغربية لم تزل منذ قرون كثيرة بلادا سائبة يتقاتل أهلها و يتظالمون و يفقدون مصالحا عظيما، و مرافق كثيرة، إلى أن غلبت عليها الدولة الفرنسية فحققت الأمان و حفظت الأموال وأصلحت الأحوال، فوجب شكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة، ثم شكر هذه الدولة المصلحة.... وأردت بهذه الرسالة التنبيه إلى أمور منها: (11)

ما جعل الله في السلطان من مصالح، ومنها أنه إذا لم يكن العدل إلا بالسلطان المخالف في الدين المتغلب بشوكتة، فالدخول في طاعته أولى ومنها أنه لا تجب الهجرة عنه عند عدم التعرض للدين كما هو الواقع ولا سيما مع عدم الإمكان، وعدم وجود أراضي لائقة يقام فيها الدين كما ينبغي لا سبيل للدولة المسيحية عليها كما هو الواقع، ومنها ما ورد في مولاه المخالف في الدين ومواد ته والركون إليه، إنما هو في الدين ومنه أن إعانة بعض المخالفين في الدين على بعضهم أو على المحاربين المفسدين في الأراضي لا بأس بها إذ طلبوا ذلك لا سيما عند الحاجة إليها، ثم حاجة العباد إلى وجود سلطان في الأرض.... وقد قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: أمران لا يصلح أحدهما بالتفرد و لا يصلح الآخر بالمشاركة و هما الملك و الرأي. فكما لا يستقيم الملك بالشركة إلا يستقيم الرأي بالانفراد...» (12). في نفس الوقت الذي أصدر فيه الزعيم الروحي الثاني في المنطقة الشيخ سعد بوه فتواه التي لا تقل دعما لكبلاني عن سابقتها حيث لم يكتف هذا الزعيم بتشريع العملية بل أنه حذر من محاربة فرنسا و التعرض لها و لمصالحها و ذلك في رسالة موجهة إلى السكان عنوانها "رسالة النصيحة العامة و الخاصة في التحذير من محاربة افرانصة" (13).

11- بابا بن الشيخ سيديا ، رسالة موجهة إلى كافة الموريتانيين يشرح فيها موقفه من دخول النصارى، مخطوط، دار الثقافة، نواكشوط.

12- بابا بن الشيخ سيديا المصدر نفسه.

13- الشيخ سعد بوه ولد الشيخ محمد فاضل ، النصيحة العامة والخاصة في محاربة الافرانصة، مخطوط، دار الثقافة، نواكشوط.

وقد مثلت مواقف رجال الدين في منطقة الترازو من العملية الاستعمارية حالة استثنائية نريد هنا أن نشير أنها لم تكن شاملة لجميع مناطق البلاد كما سيتضح لنا من خلال مواقف مختلف رجال الدين في بقية مناطق البلاد، سواء تعلق الأمر بقبول مبدأ السيطرة الفرنسية على البلاد أو حتى قبول مبدأ التعامل مع مختلف الأجهزة والأنظمة التي تولدت عن الواقع الاستعماري الجديد، وفي هذا السياق فإن رجال الدين في الترازو وخاصة الشيخ سيد بابا قد انطلق من مبدأ «أخف الضررين» على اعتبار أن المنطقة التي كان يسكن بها "الكبلة" كانت تعرف سلسلة من الأزمات السلبية المتتالية صاحبها موجات من العنف والاعتداءات استمرت طيلة النصف الثاني من القرن 19م، وحتى مجيء الفرنسيين مع مطلع هذا القرن، وكان لهذه الأزمات الأثر البالغ على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسكان تلك المنطقة.

ويرجع الشيخ سيد بابا هذه الفوضى إلى غياب السلطة المركزية، وانتشار ظاهرة السببية، وبالتالي فقد اعتبر بأن الفرنسيين هم البديل الوحيد لسد هذه الثغرة، بضمان الأمن وإشاعة العدالة بين الناس خاصة وأن هؤلاء الأخيرين بتمركزهم منذ نهاية القرن 19م في مركز سان لويس الذي يعتبر بحق البوابة الرئيسية لمنطقة الترازو، أصبحوا يتحكمون إلى حد كبير في منطقة الجنوب الغربي الموريتاني بكاملها⁽¹⁴⁾.

وعكسا لما هو الحال بالنسبة للشيخ ماء العينين الذي ناهض الاستعمار الفرنسي الذي كان يسكن في المنطقة الشمالية والتي كانت تعرف نوعا من الاستقرار النسبي، وقد كان الشيخ ماء العينين موضع تقدير واحترام من لدن سلاطين المغرب الذين كانوا ينظرون إليه باعتباره قيما على هذه الجهة، وكانوا يقدمون له الدعم

المادي و المعنوي⁽¹⁵⁾، بينما كان يحظى بتأثير قوي على قبائل الشمال الموريتاني، ودون أن ندخل في تفاصيل أكثر في خلفيات واستشكالات الأبعاد الفقهية من فتاوى الشيخ سيد بابا التي أشرنا إليها من قبل وفتاوى الشيخ ماء العينين المتعلقة بالاستعمار¹⁶، فإن كبولاني استطاع العودة إلى مدينة سان لويس السنغالية بعد أن استطاع أن يفرض الحماية الفرنسية على منطقة الترازو دون أن يكلفه ذلك إطلاق رصاصة واحدة وهو ما أعطاه دفعا وحامسا لاستكمال تنفيذ مشروعه خاصة بعد حصوله على قرار من الوالي العام لمنطقة غرب إفريقيا أصبحت بموجبه منطقة الترازو تحت الحماية المباشرة للسلطة الفرنسية وذلك بتاريخ 12 مايو 1903م، وهذا القرار الذي كلف بموجبه كبولاني بالإنباء العامة للحكومة الفرنسية في منطقة الترازو و القيام بمهام أساسية مثل مراقبة القضاء وتعيين القضاة وجمع الضرائب وإلغاء الإتاوات وفرض الضرائب، وبعد أسبوع واحد من صدور هذا القرار و بالتحديد في 19 مايو 1903م استطاع كبولاني إقناع أمير منطقة لبراكنة أحمد ولد سيد أعل رفقة مجموعة من رؤساء الأفخاذ الأميرية كأولاد نغماش وأولاد عايد وأولاد أعل بقبول مبدأ الحماية الفرنسية على منطقتهم، لكن الظروف الأمنية المتردية في منطقة لبراكنة بدورها إضافة إلى الضغوط الممارسة من طرف أمير تكانت بكار ولد أسويد أحمد دفعت بالأمير أحمد ولد سيد أعل وجماعته إلى التراجع عن هذه الاتفاقية، و بالفعل بدأت مناطق الترازو و لبراكنة تشهد موجة من عمليات النهب و السلب كان المتضرر منها بالدرجة الأولى القبائل الموالية للسلطة الفرنسية⁽¹⁷⁾ حيث عمدت المجموعات المناوئة للوجود الفرنسي إلى الضغط على تلك القبائل من أجل إرغامها على الخروج من الحماية الفرنسية ودفعها

¹⁶ - الشيخ ماء العينين ولد الشيخ محمد فاضل، هداية من حاري في أمر النصارى، مخطوط، دار الثقافة، نواكشوط.

¹⁷ - محمد الراطي ولد صدفن، مرجع سابق، ص 209.

¹⁴ - محمد الراطي ولد صدفن وآخرون، مرجع سابق، ص 212.

¹⁵ - نفس المرجع، ص 212.

إلى الوقوف في مواجهة القوات الفرنسية، وقد شهدت سنة 1903م نهب ما قيمته 60 ألف فرنك من الذرة واختطاف ما يناهز المائة من العبيد إضافة إلى قتل ثلاثين رجلا ونهب ثلاث قوارب تجوب النهر. وبالفعل كانت لهذه الحملة التي أصبحت تواجهها القبائل الموالية للسلطة الفرنسية الأثر السلبي على سياسة كبولاني التي أقامها على أساس توفير الأمن والحماية للمجموعات الموالية و هو بالفعل ما عبرت عنه بعض القبائل حيث طالبت كبولاني بالالتزام بتعهداته و توفير الأمن لهم ولممتلكاتهم و بالفعل توجه كبولاني إلى منطقة لبراكنة قصد إخضاعها والقضاء على المتسببين في هذا الوضع، وقد انطلق من مركز بوكي على رأس قوة تتشكل من ثلاث فصائل من الفرسان وفصل من القناصة السنغاليين و مفرزة من حرس الحدود بالإضافة إلى قسم من المدفعية وقوم من التكاير، وتوضح تشكيلة هذه القوات عزم كبولاني على إخضاع منطقة لبراكنة والقضاء على العناصر التي تتخذ من المنطقة قاعدة للهجوم على القبائل الموالية ونهيتها، هذا فضلا عن عزم كبولاني على استكمال خط المراكز التي من شأنها أن توفر الأمن للمناطق الجنوبية بشمائه، حيث قام فور وصوله إلى المنطقة بإنشاء مركز تمويني ببوكي ومركزين أمنيين الأول في مال والآخر بميت، وبطبيعة الحال حاولت القوات المحلية المناوئة للوجود الفرنسي عرقلة تقدم قوات كبولاني حيث واجهت هذه القوات في كل من ألاق وشكار وميت⁽¹⁸⁾ التي جابه فيها الأمير بكار بن أسويد أحمد بنفسه القوات الفرنسية التي استطاعت على الرغم من ذلك تحقيق الانتصار تلوى الآخر ممّا سهّل مهمّة كبولاني في إحكام سيطرته العسكرية على المنطقة من جهة و إغراء القبائل المتضررة من الواقع الأمني بإعلان قبولها طواعية الدخول تحت

الحماية الفرنسية، هذا فضلا عن تمكن كبولاني من تفكيك التحالف البركاني حول الأمير حيث استطاع الحصول على كسب ود الفرع الأكبر من الأسرة الأميرية "أولاد عبد الله" وقام بتعيين سيد أعلي أميرا جديدا على منطقة لبراكنة خلقا للأمير أحمدو الذي هاجر المنطقة، ولتوطيد وتثبيت السيطرة في المنطقة أمر كبولاني بدعم المراكز الموجودة حيث أنشأ كلا من مراكز أمبود في 9 مايو 1904م ومركز بياخ ومركز ألاق، كما قام بتنظيم المنطقة وتقسيمها إلا ثلاثة أقاليم:

- إقليم لبراكنة ويضم ألاك وأميت.

- إقليم مال ويضم مال وميت.

- إقليم كوركول الذي يضم أمبود.

وباكتمال خط المراكز "المذرزة، سهوت الماء، الركبة، و نواكشوط" اكتملت السيطرة الفرنسية على مناطق الترابزة و لبراكنة، وعلى الرغم من كل هذه الانجازات فقد ظلت السيطرة الفرنسية على المناطق الجنوبية غير كافية لتحقيق الأمن والاستقرار ذلك أنه لما ظلت مناطق تكانت وآدرار خارجة عن السيطرة الفرنسية وملاذا لكل رافض لهيمنة الإدارة الفرنسية على البلاد فإن النفوذ الفرنسي الفعلي على البلاد لن يكتمل و هو ما دفع بالوالي العام لمنطقة غرب إفريقيا إلى مطالبة كبولاني بمباشرة العمل على تمكين السيطرة الفرنسية على هذه المناطق⁽¹⁹⁾، لقد أدرك كبولاني منذ زيارته الأولى للبلاد الموريتانية سنة 1899م أنّ من يتمكن من السيطرة على مرتفعات تكانت و آدرار بإمكانه أن يخضع البلاد لسيطرته، فمرتفعات تكانت وآدرار على الرغم من ارتفاعها النسبي (600م) تتميز بوعورة مسالكها و صعوبة الوصول إليها فضلا عن اعتبارها ملجأ للخارجين عن الحماية الفرنسية هذا إذا

19- محمد الراطي ولد صدفن مرجع سابق، ص 67.

18- محمد الراطي ولد الصدفن، السياسة الاستعمارية وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، مرجع سابق، ص 61.

الوصل إلى مدينة تجقجة و ذلك بعد دخول قواته في معارك مع عناصر المقاومة لعل أهم نتائجها تمكن النقيب افرير جان (frère jean) بعد مباغته مخيم أمير إدوعيش صبيحة 01 ابريل 1905م في موقع "بوكادوم" واغتيال الأمير و تشتيت صفوف إدوعيش و هو الحدث الذي سيكون له صدها سلبيا على المقاومة وفور وصول كبولاني مدينة تجقجة بدأ تحركاته الدبلوماسية الرامية إلى دفع قبائل المنطقة إلى الدخول تحت الحماية الفرنسية ، على أنّ مقتل الأمير بكار ولد أسويد أحمد وإخضاع منطقة تكانت لن تقضي على المقاومة المسلحة التي أصبح القائمون عليها ينظرون إلى كبولاني على اعتباره خطرا دينيا إضافة إلى الخطر السياسي والعسكري الذي يمثلته، حيث أن المتتبع لسياسة كبولاني اتجاه القوى الدينية في البلاد يدرك أن هذا الإداري الفرنسي على دراية ليس فقط بالعلوم الدينية والثقافة الإسلامية وإنما هو على إطلاع كبير بخصوصيات هذا المجتمع الدعوي وانقساماته الطرقية لدرجة تجعل منه خطرا يهدد خصمه وسندا قويا لحليفه. وقد شرع كبولاني منذ بداية تنفيذ مشروعه في توظيف الصراع الطرقي بين مختلف هذه الزعامات الدينية لتحقيق مشاريعه فعمل على بث روح التنافس والشقاق بين مختلف هذه الزعامات ولا أدل على ذلك من رسالته التي وجهها إلى الشيخ سيديا حيث بدأ يعد العدة للزحف على منطقة تكانت، وهكذا تتضح خلفية اعتبار كبولاني خطرا دينيا بالنسبة للشيخ ماء العينين الذي يرى في نجاح كبولاني تهديدا لنفوذه الروحي وخطرا على مكانته في المناطق الشمالية من البلاد لذلك أصبحت تصفية هذا الإداري عملا ضروريا لوضع حد للتقدم الفرنسي في المناطق وهو ما حدث فعلا حيث تمكن

أضفنا إليه الصبغة الدينية التي استطاع بكارين أسويد أحمد أن يوظفها على عملية المقاومة ضد السيطرة الفرنسية على البلاد الموريتانية حيث قام بهذا الصدد بتشكيل وفد قبلي يضم اثنين وعشرين قبيلة حسب الخليل النحوي وهي (إدوعيش ولقال وأهل سيد محمود تكانت ومسومة ومشطوف وأسم سيد وأرقبيات وتكنه وأولاد أبي أسبع وأولاد ادليم وإدوعلي وأولاد أبييري وأولاد عمن والطرشان وإيدابلسن وإيديوسات وأولاد اللب وإيديشل وتاكاظ وأهل بوحين⁽²⁰⁾). وتوجيهه إلى مدينة أسماره مقر الشيخ ماء العينين وذلك من أجل التوسط لهم لدى سلطان المغرب لأجل توفير الدعم العسكري لغرض وقف تقدم القوات الفرنسية وقد أشرف ابن الشيخ ماء العينين الشيخ حسنة نفسه على المشاركة في قيادة المقاومة مما ساعد في ارتفاع معنويات المقاتلين وتأکید الطابع الجهادي الذي عمل كل من الشيخ ماء العينين و بكار ولد أسويد أحمد على إعطائه لهذه المقاومة التي بدأت حداثها و قوتها تزداد مع تقدم كبولاني في الأراضي الموريتانية و قد دفعت هذه المعطيات بالحكومة العامة لمنطقة غرب إفريقيا إلى إمداد المفوض العام للحكومة السيد كبولاني بقوات عسكرية شملت:

- قوم من الجزائريون بلغ عددهم 120 رجلا على الإبل والخيول.
- قوم من أولاد بسبع و بعض العناصر السود تحت قيادة افرير جان.
- قوم من أولاد أبيير و تكانت مد بهم الشيخ سيديا بابا صديقه كبولاني وعلى الرغم من

المحاولات الجادة التي بذلتها المقاومة الوطنية لمنع وصول كبولاني و قواته إلى منطقة تكانت فقد استطاع المفوض العام السيد كبولاني

20- الخليل ولد النحوي ، بلاد شنقيط . المنارة والرباط ، تونس ، 1987م ، ص335.

سيد ولد مولاي الزين رفقة 12 رجلا من التسلل إلى معسكر كبولاني في تحفة ليلة 12 مايو 1905م واغتيال كبولاني⁽²¹⁾.

د - السيطرة العسكرية:

لقد أدى اغتيال كبولاني في تحفة إلى تغيير النهج المتبع لعملية السيطرة الفرنسية على البلاد الموريتانية حيث بدأت السلطات الإدارية الفرنسية في مستعمرة السنغال المشرفة على هذه العملية التصريح بتخليها عن المنهج الدبلوماسي الذي طالما عبر كبولاني عن تمسكه به واقتناعه بأنه كفيّل بتحقيق السيطرة الفرنسية على البلاد على الرغم من أنّ هذه المواجهة العسكرية بينه وبين المقاومة الوطنية وتضاعف القوات العسكرية التي وضعت تحت قيادته يوحي أن الطابع العسكري للعملية الاستعمارية الفرنسية لم يكن نتيجة لفقدان مهندس المشروع الاستعماري السلمي السيد كبولاني. على العموم بادر موتاني كاب دبسك (Montané Cop de Box) الذي عين خلفا لكبولاني بفك الحصار الذي تمكنت عناصر المقاومة الوطنية من فرضه على القوات الفرنسية المتمركزة في مدينة تحفة. كما أشرف على تنظيم صفوف قواته وتأمين خطوط إمداداته ومراكزه الأمنية وقام بتقسيم البلاد في محاولة منه إلى تنظيم المناطق الموريتانية الخاضعة للنفوذ الفرنسي إلى خمس دوائر.

- دائرة الترازة الغربية ومركزها: أخروفه.

- دائرة الترازة الشرقية ومركزها: بوتليميت.

- دائرة لبراكنة ومركزها: مال.

- دائرة كوركول ومركزها: كيهيدي.

- دائرة تكانت ومركزها: تحفة⁽²²⁾.

كما قام بمركزة ثلاث وحدات من القناصة السنغاليين في كل من بوتليميت بالترازة الشرقية وتحفة بتكانت وكيهيدي بكوركول، وذلك لتوفير الأمن لمختلف هذه المناطق فضلا عن توفير مركز غمود على مفرزة فصيل من الفرسان في مركز الركبة، إضافة إلى عدة مئات من القوم السود وآخر من البيضان تحت قيادة المقيم الفرنسي في دائرة الترازة الشرقية السيد تيرمو (Theremaut)⁽²³⁾، في نفس الوقت الذي عمد فيه المفوض الجديد إلى متابعة سياسة سلفه فيما يتعلق بالعمل على دفع قبائل المناطق إلى الدخول تحت الحماية الفرنسية، وموازاة مع هذا النشاط التكتيكي المكثف ميدانيا قامت السلطات الفرنسية بالتحرك لمنع السلطات المغربية من تقديم الدعم اللوجستيكي للمقاومة الموريتانية وقد قام (موتاني كاب دبسك) بالإشراف على إنشاء فصائل الهجانة في نوفمبر 1906م وذلك في محاولة منه لأقلمة قواته المسلحة مع الواقع الجغرافي الصعب للبلاد فضلا عن ضرورة توفر القوات الفرنسية على هذه الفضائل لكي تتمكن من متابعة عناصر المقاومة المسلحة، وقد أنشأت ثلاث فصائل الأولى في بوتليميت والثاني في تحفة والثالث في المجرية، هذا في الوقت الذي عرفت فيه المناطق الموريتانية موجة من الجفاف ستجبر بعض القبائل على الاستسلام والخضوع للسلطة الفرنسية لكي يمكنها ذلك التوجه بمواشيها إلى المناطق الجنوبية الأكثر خصوبة والأقل تعرضا لموجة الجفاف هذه، وهو ما حدث بالفعل مع قبيلتي كنتة وإدوعيش اللتين أعلنت الغالبية العظمى من أفرادهما الخضوع للسلطات الفرنسية، وقد حاول (موتاني كاب دبسك) الاستفادة من الوضع الجديد و

²³ - Gillier : op.cit.P137.

²¹ - Gillier : op.cit.P136.

²² - Gillier : la pénétration en Mauritanie, op.cit.P136.

- سعد خليل ، تكوين موريتانيا الحديثة ، ماجستير ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1977م .

محمد عبد الرحمن ولد عمار وآخرون ، تاريخ موريتانيا (فصول و معالجات ، نواكشوط، 1999م.

محمد الرازي ولد صدفن، السياسة الاستعمارية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، نواكشوط، 1995م.

- محمد المختار ولد سيد محمد ، المجتمع والسلطة في موريتانيا ، المطبعة الجامعية ، 2013م .

- الهام محمد علي ذهني ، جهاد الممالك الإسلامية ضد الاستعمار الفرنسي 1850-1914م ، دار المريخ ، الرياض 1988م .

- محمد الرازي ولد الصدفن وآخرون ، تاريخ موريتانيا (فصول و معالجات)، نواكشوط.

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الجمهورية الإسلامية الموريتانية دراسة مسحية شاملة ، القاهرة 1978م ،

- الخليل ولد النحوي ، بلاد شنقيط . المنارة والرباط ، تونس ، 1987م.

المصادر باللغة الأجنبية :

- Gillier : la pénétration en Mauritanie, op.cit.P136.

ذلك من أجل استقطاب القبائل الأكثر تضررا من هذا الوضع الذي تعاني منه مناطق الشمال الموريتاني، ومع المفوض الجديد غورو الذي سيخلف مونتانيه كاب ديووسك ستعرف المرحلة العسكرية تطورا جديدا و بالفعل بدأ غورو الإعداد لتنظيم عملية السيطرة حيث استطاع مستفيدا من وجود وزير المستعمرات الفرنسي بديكار السيد ميكيه لاکرو (M.Millier Lacroix) الحصول على الإذن ببدء تنظيم حملته لإخضاع منطقة آدرار و إكمال المشروع الاستعماري الفرنسي في الأراضي الموريتانية.

خاتمة

لقد كان للسباق المحموم بين الدول الأوروبية الاستعمارية منذ نهاية الحروب النابوليونية وما انجر عنه من إحكام السيطرة علي أجزاء كبيرة من العالم بما في ذلك القارة الإفريقية، السبب المباشر لمشروع احتلال موريتانيا من طرف السلطات الفرنسية ممثلة في شخص كبلاني على البلاد الموريتانية منذ بداية القرن العشرين ، وذلك باعتبارها همزة وصل بين المستعمرات الفرنسية الجنوبية (دول إفريقيا الغربية الفرنسية)، والمستعمرات الشمالية (الجزائر تونس المغرب) .

قائمة المصادر والمراجع :

- بابا بن الشيخ سيد يا ، رسالة موجهة إلى كافة الموريتانيين يشرح فيها موقفه من دخول النصارى، مخطوط، دار الثقافة، نواكشوط.

- الشيخ سعد بوه ولد الشيخ محمد فاضل ، النصيحة العامة والخاصة في محاربة الفرنسة، مخطوط ، دار الثقافة ، نواكشوط .

- الشيخ ماء العينين ولد الشيخ محمد فاضل ، هداية من حارى في أمر النصارى ، مخطوط ، دار الثقافة ، نواكشوط .